التربية

١ الرابطة بين الافراد والجماعات والتأثير الوراثي

كما ان وجه الارض لا يزال في تبدل خفي من المؤثرات الطبيعية التي تتعاقب عليه ، فكذلك حال الهيئة الاجتماعية لا يفتأ في تبدل دائم تبعاً للتأثيرات على افرادها

الافراد تؤلف العائلة ، والعائلات تؤلف الامة ، والامم تؤلف الهيئة الاجتماعية ، لتتصل كلها بعضها ببعض اتصالاً يشبه السلك الكهربائي من حيث انهُ اذا مُسَّ طرفهُ سرت الحركة فيهِ الى آخرهِ

على ان موضع التأثر من الافراد قوام الطبيعية الثلاث ، القوة الجسدية والعقلية والاخلاقية . فتتهيأ الافراد بتهيؤ قوامها لتكيف الامم بحكم افرادها . فان صلحوا صلحت ، وان فسدوا فسدت ، غير ان هذه القوى تتفاوت في تأثيرها في الهيئة الاجتماعية ، والقوة العقلية صاحبة المركز الاول ، وهي قبل غيرها مصدر التبدلات في العالم الانساني فلا يتبدل غالباً حال امة الا بعد تغير في افكار افرادها وقد ايد ذلك العالم لوبون بقوله « ليست المعتقدات والحوادث العظيمة الخالدة في بطون التواريخ الا نتائج تغير خفي في افكار الناس »

ولما كانت التربية اشد المؤثرات على قوى الافراد الطبيعية وكانت هذه كرمام للهيئة الاجتماعية ، اصبح المربون احرى الناس تلقباً بقيادة الامم

على انهُ مع ما للمربين من القوة بتحويل الامم فهل يصح قول قائلهم « اتركوا لي تربية الاطفال لا بدل لكم وجه البسيطة » ؟

كلا ، لا يستطيع القائل الوفاء بوعده ذلك لأن كرور الزمان من اهم الشروط لنجاح التربية ، واذا سلمنا انهُ باستطاعتهِ تعهد كافة اطفال البسيطة بالتربية فليس بوسعنا التسليم بامكان تعميم الزمن المقتضي لنجاح تربيته واتمام بغيته

ان التغير البيّن في احوال العالم لم يحصل الا بعد تبديل الاخلاق والعادات والمعتقدات الشائعة ، وهذا لم يتم الا في زمن طويل يقارب المدة التي تكيفت بها احوال الامم ، يؤيد ذلك لافيس بقوله « ما من نظام يقوم في يوم واحد بل لا بد لتقرير النظامات السياسية والاجتماعية من مرور الاعصر والاجيال »

اجل ، ان الزمان من اهم الشروط واوزمها لنجاح التربية وتقرير المبادئ لان اخلاق الامم ومعتقداتها غرائز ثابتة تتوارث ابداً عن جد ، وتأثير التربية في الانسان يوازي

تأثير العوامل الطبيعية في جسمه من حيث تغييرها التدريجي فيه وعدم قوتها على تحويله التحويل الفجائي . فكما ان ابن التوقامي مثلاً يولد في بلاد الزنج ابيض ولكن المحيط يعمل مع الزمن على تبديل احفاده شيئاً فشيئاً الى ان يصيروا كالزنوج سواداً فكذلك التربية لا يمكنها تبديل الغرائز البشرية دفعة واحدة وانما تؤثر في تلطيفها تلطيفاً يتزايد مع الايام حتى يصير تحويلاً كما بيّن ذلك الكونت دي مجير بقوله « لا تؤثر التربية الاّ من حيث تلطيف امر الطبيعة الاصلية وتهذيبها »

على ان صاحب « روح الاجتماع » يوضح ذلك باكثر تبيان حيث يقول « ان كثيرين لا يزالون يتخيلون انه يتيسر للامة ان تنشئ نفسها من جديد غير مستعينة في ذلك الاّ بقوة العقل وفاتهم ان الامة جسم منظم رتبه الماضي وهي كغيرها من الاجسام لا تنتقل من طور الى آخر الاّ تدريجياً بتراكم آثار الوراثة »

هذا وان الاسلام يؤيد هذا الاعتقاد مصرحاً بالتأثير الوراثي بما جاء في القرآن الكريم عن لسان بني اسرائيل خطاباً للسيدة مريم يستنكرون عليها الولادة من غير زوج قائلين « يا مريم ما كان ابوك امرء سوء وما كانت امك بغيّاً » . وهم يعنون بذلك تقديراً سيء كيف اتيت ما لم يأته احد من اهلك

وفي الحديث الشريف « العرق دساس » . على ان كلام العرب مملوء بما يصادق على ذلك . نقتصر على ايراد قول احدهم « وما كانت الاخلاق الاّ غرائزاً » . وعلى قول المعتمد بن عباد مفتخراً

شيم الالى انا منهمُ والاصل تنبهُ الفروعُ

فعلى ذلك لا سوغ للذين ينكرون على العثمانيين بقاء كثير من عاداتهم الاستبدادية بعد الدستور لان تبديل الاسماء لا يكفي للقضاء على التقاليد القديمة وانما يقتضي لذلك زمن تنشأ فيه ناشئة جديدة على المبادىء الديمقراطية فتكيف اعمالها طبقاً لتربيتها . فليتئد المتسرعون

٢ تطور التربية وفقاً للزمان

اما القوى الطبيعية اي الجسدية والعقلية والاخلاقية فهي كبزور النبات مستعدة كلها للظهور وانما يظهر منها على غيره اكثرها تعهداً بالتربية ولما كانت حاجة الاجيال تختلف باختلاف تقاليدها وعاداتها الاجتماعية كان تعهد كل من القوى الطبيعية يجب الحاجة الاكثر لزوماً لذلك العصور

في الزمان الغابر كانت الحاجة تدفع البشر للاهتمام بقواهم الجسدية وحدها لانها كانت السلاح للتنازع البقائي والعامل لحفظ الحقوق بل والبرهان ايضاً لتبرئة المتهم كما يستفاد من قول دافد وطمسن راني « كانت براهين التبرئة عند النورمانديين ان يوصل المتهم الى الحرب فان هلك كانت التهمة صحيحة والهلاك عقابهُ . فكان الخصمان يقتتلان امام القضاة والغالب يبرأ . فلذلك نشأ منهم الرجال الابطال الذين نكاد نكذب ما يروى لنا عنهم لبون الشاسع بين قواهم الجسدية وقوانا الآن

ثم كانت بعض الاديان للقوة الادبية كالماء والهواء والنور للنبات فانشئها بعد ذبولها بل احيتها بعد موانها حتى ملكها الناس مكانة القوة الجسدية فنبت منهم نابتة رقيقة الشعور وشة الاخلاق

ولما ظهر التمدن الحديث وكان على العقل محورهُ وعلى الشعور الحسي معتمدهُ تعهّد الانسان القوة العقلية بالاستخدام والتربية حتى فاقت لديه اختها كما فاق هو اسلافهُ بالاستفادة من العقل واخراج الافكار الى حيز الاعمال حتى ان اختراعاته اليوم ربما حسبها الاقدمون من قبيل السحر او معجزة سماوية

٣ هل توصل الانسان الى التربية التامة ؟ وما مبلغ ابن العصر منها ؟

قبل الحكم في ذلك يقتضي معرفة المقصود بالتربية التامة . ثم اذا علمنا ان المراد بها كما عرّفها « كانت » « انماء كل ما في الانسان من القوى » اي تنمية القوى الجسدية والعقلية والادبية معاً حينئذٍ يسهل علينا القول بان الانسان لم يدرك الى الآن التربية التامة لانهُ لم يكن في زمن من الازمان مهتماً بجميع القوى الطبيعية على السواء

اما مبلغ معاصرينا من التربية الصحيحة فيختلف الكلام فيهِ باختلاف الامم . ولما كان المقام لا يسعنا للتخصيص فنعمم القول عن الغربيين والشرقيين

فمع ان الغربيين اجمعوا على جانب عظيم من الاعتناء بالتربية العقلية والجسدية فاننا نلاحظ بحق ان العاطفة والشعور والقدسة وسواها من اركان التربية الادبية كانت تضعف عندهم كما تقدموا قيد شعير في المدنية الحديثة . فكم منهم يموتون جوعاً وبرداً في لندرا قرب قصور اللوردات المملوءة زاداً ووقوداً ؟ وكم من الاباء او الاولاد يعجزون في نيويورك عن متابعة العمل فلا يجدون لهم من اولادهم او اباتهم معيناً فيموتون حسرة واسفاً ؟ . وكم في البلاد اللاتينية من المحتالين والسارقين في المعاملات حتى لدى اعاظم البيوتات التجارية ؟ .

هذا واما التربية الشرقية فقد اصبحت مهملة ومشوشة الاساليب بما خالطها من التقاليد الافرنجية . فالتربية الجسدية منبوذة جانباً والعقلية ناقصة من حيث طرق التعليم . واما التربية الادبية فمضطربة وفي حال التطور

فالغربيون يجب ان يعودوا الى التمسك بالدين سداً للنواقص في تربيتهم الادبية والشرقيون يجب عليهم الاعتناء بتنمية قواهم الثلاث . الجسدية بالمحافظة على القواعد الصحية والرياضية . والعقلية بتحصيل العلوم الطبيعية والبحث في اسرار الكائنات . والادبية بالتخلق بالاخلاق الدينية وتحصيل ما يوافقها من المستحسنات العصرية

فاذا قام كل من الغربي والشرقي بذلك حصل ابناء العصر على التربية التامة المنشودة في كل زمان وساد بينهم السلم والسلام

بيروت محمد جميل بيهم

القصر البالي

وقفتُ وقد سادَ الدُّجى قلقَ الفكرِ أمُدُّ بأبصاري الى منزلٍ قفرِ
تلفَّعَ مثلي بالظلام وقد غدا بعيداً عن العمرانِ يأنس بالهجرِ
وهبَّت بهِ الارياحُ حرّى كأنها صواعدُ انفاسٍ تهبُّ من الصدرِ
وسالتْ عيونُ الماءِ فيهِ كأنها دموعٌ على آثار سكّانهِ تجري
ومالت عليهِ دَوْحةٌ بذبولها وقد خرجتْ من بهجةِ الورقِ النَّضرِ
فكانت كثكلى فوق قبرِ فقيدها تمزّقُ الجلبابَ محلولةَ الشعرِ

***

لحتُ ظلالَ الموتِ تبدو وتختفي بهِ وعُبابَ الشرِّ يقذفُ بالشررِ
فقلت أجنٌّ ما ارى ام خيالةٌ ترفُّ ام الاموات تنسلُّ من قبرِ
ام الفلكُ الدوّارُ تنهالُ شهبهُ أم الارضُ قد دارت بها أخذَ السحرِ
وصحتُ وقرطُ العيِّ يوشكُ انهُ يسدُّ فمي لولم اعذْ منهُ بالصبرِ

***

أيا قصرُ قل لي اين اهلكَ ما الذي عراهم أما من هاتفٍ لبيك ذي خبرِ